



نعم، هي الإجابة عن هذا السؤال، وإذا تجنبنا الحديث عن صفقة أو اتفاق مبرم سراً بين الأطراف الدولية الفاعلة، فثمة ما يصح اعتباره توافقاً موضوعياً أو تفاهماً بينها في التعاطي مع الحالة السورية جوهره عدم تعجل الحسم وإدارة الصراع بالتقاط لا بالضربة القاضية كما حصل في ليبيا.

والحقيقة، ليس في تكرار التصريحات عن عدم وجود نية غريبة للتدخل العسكري، وتبادل الاعتراف بين واشنطن وموسكو بدور الطرف الآخر في معالجة الأزمة، وزيف التهديدات النارية بعقاب رادع في حال تكرار أحداث حماة أو بابا عمرو، أو بحظر جوي أو بمنطقة عازلة وربط ذلك، مرة بتزايد أعداد اللاجئين، ومرة باستخدام السلاح الكيماوي، وأيضاً المراوغة في مد المعارضة بأسلحة متطرفة تساعدها على تعديل التوازنات على الأرض، في مقابل الإكثار من المؤتمرات والاجتماعات التي تظهر إصراراً لافتاً على دعم أي شكل من المبادرات السياسية العربية أو الدولية على رغم معرفة الجميع بلا جدواها وأنها تمنح النظام المزيد من الوقت للقمع والتنكيل.

كل ما سبق هو دلالات استرخاء مخزٍ يسترخص دماء السوريين ومستقبل أجيالهم ويستهتر بما يحل بهم من دمار وخراب، ولا تغير هذه الحقيقة الإدانات الصادمة للقمع السلطوي المفرط، والجهد المبذول لتوثيق ما يجري وإحالة المرتكبين إلى المحاكم الدولية، أو زيادة حجم المعونات المخصصة للاجئين السوريين، لأنها أشبه برفع عتب يخفى العجز الأممي المشين عن أداء واجبه الإنساني.

ولا شك، ما كان لهذا التوافق الموضوعي أن يستمر طويلاً ويتجاوز الحرج الأخلاقي الناجم عن الصور المرهعة لما تخلفه آلة الفتاك والتدمر، لو لا وجود مصلحة أممية مشتركة ودفاع متقابلة لدى أميركا وروسيا، بصفتهما الدولتين الأكثر تأثيراً. **أولاً، التحسب المشترك من خطر دفع الأمور إلى حدتها الأقصى** والتي معركة كسر عظم بسبب تقدير الخصوصية السورية وارتباطها بأهم الملفات الحساسة في المنطقة وتأثير ذلك في استقرار الشرق الأوسط، يعززه انخفاض أداء السياسة الأمريكية التي فقدت الكثير من حيويتها بسبب أزمتها الاقتصادية وما عانته في العراق وأفغانستان وحضور مصلحة عربية تحذر التغيير السياسي الداخلي تفانياً لآثار التدخل الخارجي ومخاطر تداعياته على الأمن العربي، الأمر الذي يفسر الحرص المتبدال على عزل الحالة السورية ومحاصرة احتمال امتدادها إلى بلدان الجوار، وأيضاً جدية التعامل مع تهديد طهران

الصريح بدخولها في حرب مفتوحة للحفاظ على النظام كأهم حلقة من حلقات نفوذها الإقليمي.

وإذا تجاوزنا حسابات التكلفة جراء التدخل في بلد لا يمتلك موارد كافية للتعويض، فللطرفين الأميركي والروسي مصلحة في الحفاظ على الاستقرار الراهن وعلى مستوى من التوازن بين الحضور الإيراني في المنطقة والحضور العربي لضمان استمرار الحاجة إليهما في درء أي أزمة محتملة، من دون أن نغفل إدراكهما أهمية التشارك في التفكير الآمن لأسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها النظام، وتحديداً بعد التهديد الواضح بإمكانية استخدام السلاح الكيماوي.

ثانياً، ثمة مصلحة مشتركة في الإفادة من الساحة السورية لتصفية الحساب مع تنظيم القاعدة وأشقاءه من الجماعات الجهادية، فالجميع يدرك أن ما يحصل من فتك وتنكيل هو عامل جاذب للجماعات الإسلامية المتطرفة، وهناك أكثر من اجتهداد ونداء صادر عن تنظيمات جهادية تعتبر نصرة السوريين فرضاً على كل مسلم، والمعرف أن تنظيم القاعدة لا يزال العدو والخطر الرئيسي واحد عند الأميركيين، بينما يتحسب الروس في حال سقوط النظام من اشتداد عود التيار الجهادي وعودته إلى النشاط في البلدان الإسلامية المحيطة بهم وفي مقدمها الشيشان، والنذير ما أعلنه أخيراً عن مقتل ابن أحد زعماء حرب الشيشان في معارك حلب.

ثالثاً، طاب المجتمع السوري التعدي وجدية مواقف مختلف الأطراف العالمية من ضرورة تعزيز مكوناته المختلفة وحماية الأقليات، الأمر الذي يستدعي التريث في تحقيق نقلة حاسمة قبل أن يجري الاطمئنان إلى مصير الأقليات ووحدة المعارضة السورية حول برنامج واضح يرسم معالم مرحلة انتقالية تكرس قواعد الحياة الديموقراطية وحقوق المواطن... واليوم أضفت على هذا الهدف أهمية خاصة، الاندفادات العدوانية لجماعات سلفية ضد السفاريات الغربية للتعبير عن رفضها لفيلم يسيء إلى الرسول الكريم، ويزيد هذا الهدف إلحاحاً توائر المطالبات المباشرة وغير المباشرة من جانب بعض الأقليات ل توفير حماية مسبقة لأبنائها وحقوقها وممتلكاتها.

رابعاً، وهي النقطة المشتركة الأهم التي لا يمكن الطرفين الغربي والروسي أن يقفزا فوقها، ونعني المصلحة الإسرائيلية وأولوية الأخذ برأيه تل أبيب حول تأثير التغيير في سوريا في أنها الاستراتيجي.

فإلى جانب اللوبي اليهودي في أميركا والمؤثر في سياسات واشنطن الشرق أوسطية، ثمة لوبي يهودي تناهى دوره في روسيا ولا يقل أهمية في التأثير في قرارات الكرملين المتعلقة بالمنطقة. وما رشح إلى الآن، أن إسرائيل وضعت روسيا والغرب أمام أحد خيارات، إما الحفاظ على نظام خبرته جيداً ووفى بوعده في الحفاظ على جبهة الجولان آمنة ومستقرة، وإما التلاعب بالصراع السوري كي يطول أمده ويسير بالمجتمع والدولة نحو الخراب والاهتراء كي تؤمن جانب هذا البلد لعشرات مقبلة من السنين.

والحال، إذ يفضي التوافق الموضوعي وسلبية مختلف الأطراف الدولية من الثورة السورية إلى محاصرتها، يراهن السوريون على أن النظام هو من سيساعدهم على إجهاض هذا التوافق، باستناده إلى العنف المفرط ورفض كل شيء إلا منه الوقت كي يعيد الأمور كما كانت، وهم واثقون بأن استمرار ثورتهم هو الأساس، وأن إصرار الشعب على حقوقه واستبساله في الدفاع عنها وما يقدمه من تضحيات، هو المعلم والمحرك الرئيس للمتغيرات السياسية والتي تجعل إطالة أمد الصراع عبئاً ثقيلاً على الجميع، يُذكرهم على إعادة النظر بمعتقداتهم، والبحث عن مخرج عاجل من هذا الوضع المأسوي.

المصادر: